كلا لن نخاف

الغيارى على العبودية!

عيسى مخلوف

"لا يعود باستطاعتنا أن نتحدّث مع من نحبّ، وهذا ليس بالصمت"

رينه شار

هل ثمة حرية في ظل الخوف؟ هل ثمة حرية في غياب الأمن؟ وأيّ معنى للسياسة في غياب الحرية؟ ينبغي إعادة تحديد هذه الكلمة التي تبدو، لفرط وضوحها، غامضة. حرية أن يكون المرء، كما يحلم في أن يكون، خارج القطيع المبرمَجة حياته سلفاً، من المهد إلى اللحد. خارج الموت السابق للموت. فالموت الذي نعيشه في غياب الحرية، ونحن أحياء، أخطر بكثير من موت الموتى. هذا الأخير، في بعض الأحيان، يحرّر من السلاسل. أما الموت الأكثر رعبا فهو أن تكون حيا وميتاً في آن واحد.

الموت الأكثر رعباً هو أن تعيش في القرون الوسطى وأنت في مطلع القرن الحادي والعشرين. القرون الوسطى ليست مرحلة تاريخية بل حالة ذهنية يمكن أن تطالعنا في أي قرن. إنها في تبنّي المنطق الظلامي وفرضه بالقوة، وفي تخوينك لمجرد أن يكون لك رأي، حتى لا نقول إذا كان رأيك مختلفا. وتتجسّد أيضاً في ملاحقتك واعتقالك أو في قتلك وسحلك كذبابة. وطالما خُيّل إلينا أنّ المطالبة بالحرية، حرية القول والفعل، حقّ بديهي مثل المطالبة بالشمس والخبز. وربّما فاتنا، أو لا يفوتنا ولا نبالي، بأنّ التحدّث بحرية، والمطالبة بالحرية، هما في جوهرهما تحدّ للفكر السلطوي وإعلان حرب عليه ووضع الذات في دائرة الخطر.

أن تكون حراً يعني أن تكون مسؤولاً. وهذه من أولويات الحرية. لكن في الأنظمة الطاغية لا يمكن أن يكون مسؤولاً إلا النظام، الواحد الأحد. الكلّي، المطلق، الضابط الكلّ. وهو، بالطبع، مسؤول عن حماية نفسه لا عن حماية الشعب. عن حماية نفسه من شعبه حتى لا يتجرأ أحد ويكسر حاجز الخوف ويقول ما يريد أن يقوله. وإذا ما تجرأ احدهم وكتب وانتقد، يتّخذ انتقاده على الفور معنى التدنيس طالما أنّ الحكم الشمولي يتماهى مع الطبيعة الإلهية، ويصبح هذا الحكم نتيجةً لذلك، وفي نظر نفسه بالطبع، حكماً أبدياً مطلقاً لا حدود لجبروته.

هذا النزوع نحو الأبدية لا يطالعنا فقط في التوجّه السياسي والأحكام المبرَمة ولا في مسرحَة السلطة وإقامة التماثيل للزعماء وهم لا يزالون على قيد الحياة، وإنّما يطالعنا أيضاً في بعض الشعارات التي تواكبها وأبرزها تلك التي تكتب اسم الزعيم مرفقاً بعبارة "إلى الأبد". هذه العبارة البسيطة الرهيبة بالإضافة إلى توكيدها على ألوهية الزعيم القائد، تريد أن تقول إنّ كل فرد من أفراد المجتمع مراقَب، وإنّ العين الساهرة ستظلّ ترافقه، ليل نهار، مدى الدهر. وقد يكون للعبارة معنى آخر إذا ما نظرنا إليها في بعدها البيولوجي، أي عندما تتحول السلطة مَلَكاً متوارثاً يتمّ تناقله عبر الأجيال.

من هنا، فإنّ المطالبة بالحرية شكل من أشكال الاعتداء السافر، إذ من غير الجائز أن يتجرأ "صعلوك حقير" (وهذه، بالتحديد، الصورة التي تعكسها السلطة المتسلّطة على المواطن الذي لا يتمتع بالمواطَنة)، ويعبّر عن رأيه بحرية وينتقد بوضوح. الانتقاد هنا، في نظر الحاكم وفي نظر أتباعه الذين يقدّسونه، نوع من الانتهاك. إنه عمل عدواني من الطراز الأول.

هكذا يختلف مفهوم الحرية بين منطقَين: منطق السلطة الشمولية المطلَقة، ومنطق الفرد الذي ينادي بمجتمع ديموقرطي. وهل تنفصل أيضا الديموقراطية عن الحرية؟ إنّ هاجس الأنظمة الشمولية ليس فقط تدمير الحرية فينا بل- وهذا الأخطر- تدمير فكرة أن يكون عندنا حرية في يوم من الأيام. تدمير الحلم في الخروج من المقبرة التي وجدنا أنفسنا فيها.

لا تتكئ هذه الأنظمة (دائماً أو إلى حين) على الحماية الخارجية وحدها، بل أيضاً على الواقع الاجتماعي والتربوي المتردّي القائم داخل مجتمعاتها، وعلى حالة الجهل المستتبّ. لذلك فإنّ أيّ صوت متعلم ومتنوّر يدخل السياسة من باب رؤية صادقة وجلية هو خطر بالنسبة إلى النظام الذي يسعى على الفور إلى محاصرته وتصفيته. ومن السهل تصفيته طالما أنّ المثقّف النموذجي الذي ينخرط في العمل السياسي كجزء من قناعاته وتوجّهاته الثقافيّة، لا يشكّل في العالم العربي إلا قلة تزداد تهمّشاً. هكذا فإنّ الجهل، متبوعاً بالفقر والبؤس والبطالة، هو أحد الرهانات الأساسيّة للنظام العربي. على هذا الجهل يراهن هنا، وعلى تسييس الدين هناك، لا سيما أنّ مجتمعاتنا العربية تشهد انغلاقا متزايداً على الذات، وتشبّثاً بالماضي (ليس الجانب المضيء من ذاك الماضي بل الجانب المظلم. الجانب الخرافي الغيبي لا الجانب العقلاني والنقدي)، وسطوة الإيمان المبني على الجهل. وعندما يتمّ توظيف هذا النوع من الإيمان في السياسة يصبح أفظع الإيمان وأكثره عنفا وتفجّرا وقدرة على الفتك. ولا تعرف تلك الأنظمة، المحمي منها من الخارج، أو التي أسقط عنها الخارج حمايته، أنّ هذا الرهان لا يمكن أن يدوم إلى الأبد، وأنّ مرحلة التآكل - تآكلها لنفسها - قد بدأت.

في الأسطورة الإغرقيّة، هناك حيوان غريب يدعى كاتوبليباس. هذا الحيوان يعمد إلى افتراس نفسه عندما لا يعود أمامه ضحايا ينقضّ عليها ويفترسها...

هكذا هو الوضع عندنا: السياسة من جهة، ومن جهة ثانية الحرية في المفهوم العلمي والأخلاقي، وكذلك في الطريقة المركّبة التي صاغها الفيلسوف كانط ومن بعده عدد من الفلاسفة والمفكرين نذكر منهم بالأخصّ حنا أرندت التي تطرّقت بدقة ونفاذ إلى هذا الموضوع وكشفت بعض جوانبه الأساسية لا سيّما من خلال التمييز بين مفهومَين: الحرية بوصفها فرَضيّة والحرية كتطبيق وفعل منجَز. وهي التي تقول إنّ الممارسة والسياسة - من بين جميع قدرات الحياة الإنسانية وإمكاناتها - هما الأمران الوحيدان اللذان لا يمكن على الإطلاق أن نكوّن ولو فكرة بسيطة عنهما بدون أن نعتبر، حتى من باب الافتراض، أنّ الحرية موجودة. وكيف يمكن أن نتطرّق إلى أي مسألة سياسية لا يكون سؤال الحرية الإنسانية فيها على المحك، وإلا فأي معنى يبقى للحياة السياسية بدون هذا السؤال؟

■■■

يموت الحرّ قبل أن يقتله الغيارى على العبودية.

يموت الحرّ حين لا تعود كلماته تدفع كالمجذاف مركبَ الواقع. أليس لموت سمير قصير، في لحظة تعثّر حركة المعارضة التي ابتهج بها وراهن كثيراً عليها، دلالات كبيرة؟ ■

يا فـؤادي

محمد سويد

لم تختلف صورة الرجل عن الشاب الذي كان وعرفته. في مثل هذا الشهر وقبل ثلاثة وعشرين عاماً بالتمام، تعرفت إليه متردداً على جريدة "السفير". في صيف الاجتياح الإسرائيلي، تحول مبنى الجريدة مزاراً لمراسلين أجانب. وفي قلب الخوف والظلمة، بدا ذاك الشاب في نعومة كلامه وندرته المنسابة من ثغره الباسم طالباً مستزيداً في العلم. رآه البعض ساخراً ورأيته ساحراً. بلحيته وحقيبته المتدلية من كتفه وثوبه الجينز، كاد يشبه أولئك المراسلين الأجانب. وإذ أستعيد صورته الآن أشعر أنه أقرب إلى المرسلين منه إلى المراسلين. في خفر الغريب الممسك عن إطالة الكلام مع شخص آخر غريب في لقائه الأول به، صافحني وعرّفني باسمه. "سمير"، قال، "سمير قصير". أذكر أن الاجتياح وقع بعد يومين من إيابي من مهرجان كان السينمائي ولا أذكر من كل حديثي مع سمير سوى قولي له إن أبو عمار أجمل رجل في العالم. حصل ما حصل. رحل أبو عمار ورجاله، حمل سمير حقيبته، سافر، بل سافر مجدداً. عدت والتقيته طالباً متخصصا في دراساته العليا في السوربون. حملت إليه مجموعة من أعداد "السفير" وربما كتابين أو أكثر وحمّلني شوقه إلى صديقين أو أكثر.

جميل ملاعب

كانت باريس وكنا معاً وجها لوجه يلفحنا برد المدينة والهواء السام المتسرب إلى قلب مقهى مفتوح على باحة وبركة ماء. علمت من سمير أن هذا المكان شهد في ما مضى تظاهرات الطلاب في ربيع 1968. لم يشأ الحديث أكثر من ذلك، لا في السياسة ولا من حيث انقطع كلامنا في جريدة "السفير" عن فلسطين وشارون ودباباته. كنت سفير شوقه إلى بيروت، لا أكثر ولا أقل، حسبنا حديث المطر وصحبة آخر الكتب والأفلام المعروضة في الصالة المجاورة لحي جامعته. قلت له إني لمحت لويس بونويل ماراً أمام مقهى "لا كوبول". ضحك وفهمت منه أني مررت في حدث لا ينعم به المقيمون في باريس أو عابرو سبيلها.

بين صيف بيروت وشتاء باريس تغير الكلام وبقينا مثل غريبين لا يجيدان ما ينهيان به حديثهما غير قول أحدهما إن أبو عمار أجمل رجل في العالم. أجمل ما فيك سمير أنك تعطي الآخر ما يحبه ولا تنسى الاحتفال بحبك له وكأنك تعانق حنيناً وحلماً طال بعده. من نشر الطبعة العربية لدورية "لوموند ديبلوماتيك" إلى رئاسة تحرير "لوريان إكسبرس" و"دار النهار" ومعارضك ومطبوعاتك الأنيقة في مهرجانات بيت الدين، فتحت لأصدقائك كل الآفاق. كانت هذه الآفاق منازل حب. ويكفيني حباً يا سمير أنك استضفتني في كل هذه المنازل. لولاك لما كتبت "يا فؤادي". حين تبنيت نشره، سهرت عليه سهر الشغوف باختيار الهدية. أشرت إلى ذلك في مستهل الكتاب وها أنذا أجد نفسي في لعنة السفر الذي أبعدني عنك يوم رحيلك لا أمتلك ما أهديه إليك غير عنوان كتابي، كتابك، "يا فؤادي".

أعطيتني يا صديق ذاك الصيف البعيد ما يفوق قدرتي على الشكر. لم تترك لي مجالاً للشكر، ولم تأذن لي حتى به، فأنت تهدي وتتوارى إذ تؤثر بقاء الشكر وديعة الابتسام. يحز في نفسي أن لا يكون هذا الصيف صيفنا. لم أتصور يوماً أني سأكتب إليك. تعودت النظر في وجهك وليس في صورتك. الآن، لا أكره شيئاً أكثر من الكتابة وسط الكلمات المنهمرة نعياً لك، أنت الذي جعل الابتسام نعمة المغفرة ونشوة الفؤاد، يا فؤادي ■